المكتبة الخضراء للأطفال

٤٥

الصياد المسكين والمارد اللعين



تأليف
يعقوب الشاروني

رسوم
صلاح بيصار

دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

٤٥

الصياد المسكين والمارد اللعين

تأليف

يعقوب الشاروني



رسوم

صلاح بيصار



دار المعارف



يُحْكَى أنَّ صيَّادًا ، اسمُهُ عبدُ اللهِ ،كان يعتمدُ في رزْقِه على صيدِ أسْماكِ البحرِ. كانَ عبدُ اللهِ فقيرًا جدًّا ، لا يكْسِبُ إلاَّ القليلَ الذي يحفظُ حياتَهُ وحياةَ زوجتِهِ وأولادِهِ الثّلاثةِ .

في كلِّ صباحٍ ، يخرجُ حاملاً معه شبَكَتَهُ الثَّقيلةَ . ولم يكنْ يرْمِي الشبكةَ إلا أربعَ مراتٍ فقط في كلِّ يومٍ ، فقد كان يَعْتقدُ أنه إذا زادَ علَى ذلك ، أصابَهُ سوءُ الحَظِّ .

كانَ يقولُ :«لنْ تُساعِدَنِي صِحَّتي على أن أجْذِبَ هذه الشَّبكَةَ الثَّقيلةَ أكثَرَ مِنْ أربعِ مراتٍ في اليومِ ، وإذا لم يخْرُجْ سَمكٌ في أربعِ مرَّاتٍ ، فلن يخرجَ سمكٌ بعدَ ذلك» .

وإذا اصطادَ شيئًا ، يحملُ ما منحَهُ اللهُ من رزقٍ ، ويبيعُهُ فى السوقِ ، لينفقَ ثمنَهُ فى شراءِ احتياجاتِ زوجتِهِ وأبنائه الثلاثةِ ، سامع وسمعان وسعدية .

وإذا أصابَهُ سوءُ الحظّ ، ولم يصطدْ شيئًا ، يطوى شبكتَهُ ، ويحملُها فوقَ ظَهْرِهِ ، ويعودُ فارغَ اليدَيْنِ إلى أسرتِهِ ، لا يجدُ ما يشترى به طعامَ عشائِهم .

* * *

وفى تلك الأيامِ التى يلازمُهُ فيها حظُّهُ السيِّئُ ، كان يتجنبُ السيرَ أمامَ دكانِ جارِهِ بائعِ الخبزِ ، فقد كان يخجلُ من كرمِ ذلك الجارِ .



لكن ذلك الجارَ ، ما إن يلمحْ عبدَ اللهِ يقتربُ من دكانِهِ ، حتى يُنادِى فى ودٍّ :

« فرجُ اللهِ قريبٌ !! »

عندئذٍ لم يكُنْ فى استطاعةِ عبدِ اللهِ أن يُخفِيَ نفسَهُ عن جارِهِ ، فيقفُ فى مكانِهِ ، يخشى أن يردَّ تلك التحيةَ المرحةَ ، لأن الكلماتِ ستخرجُ من فمِهِ باكيةً مهمومةً .

عندئذٍ يفهم الجارُ أن سوءَ الحظِّ كان رفيقَ الصيادِ فى ذلك اليوم ، فيُسرِعُ إليه حاملاً « قفة » صغيرةً ، ملآنةً بأرغفةِ الخبزِ ، وهو يقولُ له : « خُذْ هذه لأولادِكَ » .



بل كانَ يضعُ أحيانًا بعضَ النقودِ في يدِ عبدِ اللهِ ، وهو يقولُ له : «وهذا قَرْضٌ صغيرٌ، يُمكنُ أن تردَّهُ عندما تستطيعُ» .

* * *

لكنَّ عبدَ اللهِ لم يستطعْ أن يردَّ شيئًا ، لأن الصيدَ كانَ شحيحًا وقليلاً ، لا يَكْفي في كلِّ مرةٍ إلا لِطعامِ يومٍ واحدٍ حتى في الأيامِ التي يُحالِفُهُ فيها حظُّهُ الحَسَنُ .

وذاتَ مساءٍ ، وجدَ عبدُ اللهِ نفسَهُ يقولُ لجارِهِ الخَبَّازِ : « خُذْ شبكتي ، وفاءً لبعضِ ديوني »

لكنَّ الخَبَّاز رَدَّ في استنكارٍ : « وهل أحرمُكَ من مصدرِ رزقِكَ ورزقِ عيالِكَ يا رجلُ ؟ أنا واثقٌ أنه سيأتي يَوْمٌ تردُّ لي فيه أضعافَ ما أقرضْتُكَ من مالٍ ، فاللهُ لا يتركُ أبدًا عبادَهُ الصالحينَ » .

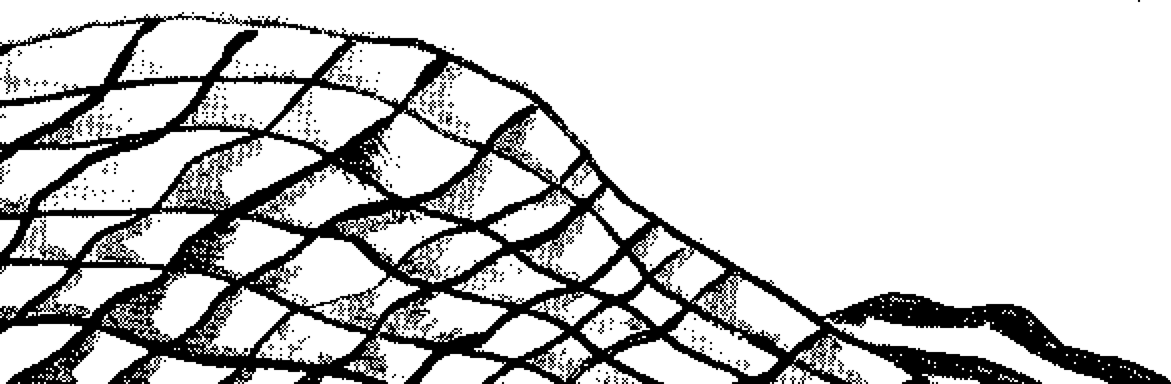
* * *

ذاتَ يومٍ ، ذهبَ عبدُ اللهِ إلى شاطئِ البحْرِ كعادتِهِ ، مُبَكِّرًا قبلَ طلوعِ الشمسِ، ورمَى شبكتَهُ في الماءِ . وعندما أخذَ يجذبُها ، وجدَها ثقيلةً ، فظنَّ أنَّهُ حصلَ على صَيْدٍ ثمينٍ.

لكنَّه عندما جذَبَ الشَّبَكَةَ ، كانت مُمتلئةً بالأصدافِ وأعْشابِ البحرِ !

رَمَى الصَّيادُ الشبكةَ في البحرِ مرَّةً أُخرى ، وانتظرَ . وعِندما بَدأَ في جَذْبِها ، لم يجدِ الأمرَ سهلاً ، فتجَدَّد أمَلَهُ في صيدٍ عظيمٍ .

لكنْ عندما أصبحَتِ الشبكةُ على الشَّاطِئ ، لم يجدْ بها إلاَّ سَلَّةً مملوءةً بالأحْجارِ والطِّينِ والرَّملِ ، ولم يكنْ بها ولا حتَّى سمكةٌ واحدةٌ صغيرةٌ !!



وارتَمَى الصّيادُ على الشاطئ يَلْهَثُ مِن التَّعبِ ويَصيحُ : « بعدَ كلِّ هذا التَّعَبِ ، لا أجدُ إلاَّ هذا ؟ لكنْ ... لا بأْسَ .. لن أتوقَّف عن المحاولةِ » .

ثم رَمَى الشبكةَ وهو يقولُ ، في محاولةٍ لزرعِ التَّفاؤل في نَفْسِهِ :
« الرَّمْيَةُ الثالثةُ محظوظةٌ » .

وفي هذه المرة ، وجدَ الشَّبكةَ ثقيلةً جدًّا .

فَرِحَ الصَّيَّادُ ، وأخذَ يجذبُ الشَّبكةَ ، وهو يَتَشَبَّثُ بأحجارِ الشاطئ حتى لا يسقُطَ .

لكنه عندما أخْرَجَها ، بعد محاولاتٍ مُسْتَميتَةٍ ، وجد بها جُثَّةَ حصانٍ مَيِّتٍ !!

هنا بدأ اليأْسُ يتسلَّلُ إلى نَفْسِ الرجلِ ، وخافَ أن يعودَ إلى أولادِهِ فارغَ اليدَيْنِ.

* * *

وعندما نظرَ إلى الأُفُقِ ، لاحظَ أنَّ أنوارَ الفَجْرِ بدأت تنتشرُ ، فتركَ شبكتَهُ ، وقامَ يؤدِّى الصلاةَ.

انْتهَى الصيادُ من صلاتِهِ ، ورمَى شبكتَهُ للمرةِ الرابعةِ والأخيرة .

ومرَّةً أخرى ، عندما جذَبها ،



لم تُسعِفْهُ قُوَّتُهُ لإخراجِها من الماءِ ، فأخذَ يُحاولُ ، ويحاولُ ، حتى أخرجَها إلى الشاطئ . وإذا به يجدُ بداخِلها جَرَّةً نُحاسيَّةً كبيرةً وثقيلةً!!

وعندما فَحَصَها ، وجدَ عليها غِطاءً مُغْلقًا بإحْكامٍ ، ومختومًا بالرصاصِ .

فكَّرَ قائلا : «على الأقلِّ ، أستطيعُ أن أبيعَ نُحاسَ الجرَّةِ لصانعِ النُّحاسِ ... وقليلٌ خيرٌ من لاَ شيءٍ ..»

هَزَّ الجَرَّةَ ، لكنه لم يسمعْ صَوْتَ شَيْءٍ بداخلِها . فأمسكَ بسكِّينِهِ ، وأزالَ الرصاصَ ، وفتحَ الغِطاءَ . ثم نظرَ داخلَها ، فلمْ يرَ شيئًا .

وكانَ الصيَّادُ موشكًا على أن يُعيدَ الغِطاءَ إلى مكانِهِ ، عندما رأى شيئًا كأنَّهُ عمودٌ كثيفٌ من الدُّخانِ ، يخرجُ من الجرَّةِ .

* * *

وازْدَادَ الدُّخانُ كَثافةً وهو يرتفعُ بسرعةٍ ، ثم تَجَمَّعَ فى كُتلَةٍ عظيمةٍ ، خرجَ من وسَطِها ماردٌ عِملاقٌ ، وقفَ بجسمِهِ الهائلِ أمامَ الصَّيادِ ، ثم صاحَ فيه :

« اركَعْ على رُكْبَتَيْكَ ... سوف أقتلُكَ . »

سألَهُ الصيادُ فى خوفٍ شديدٍ :

« لماذا تَقْتُلُنِى ؟! لقد أطْلقْتُ سَراحَكَ من الجرَّةِ التى كنتَ محبوسًا فيها ! »

أجابَ الجنِّيُّ : « هذا هو السببُ الذى يدْفعُنِى



إلى قتـلِكَ .

لكـنْ لأنّـكَ أنقـذْتنى ، سأُجِيبُكَ إلى طلبٍ واحدٍ قبلَ مَوْتِكَ . ماذا تتمنّى قبل أن تُغادر هذه الدنيا؟ »

أجـابَ الصـيادُ المِسكينُ وهـو يرتجفُ رُعبًا : « يجبُ أن أفكّرَ قبْلَ أن أُجِيبَكَ . » فقد أرادَ الصيادُ أن يُتيحَ لنفسِهِ وقتًا يفكّرُ فيه ، لذلك رأى أن يشغلَ الجنّىَّ بشَىْءٍ.

قالَ لنفسِهِ : « كلُّ الناسِ يُحِبُّونَ أن يتحدّثوا عن أنفسِهم . فإذا طلبْتُ من هـذا الجنّىِّ أن يُحـدّثَنى عـن نفسـهِ ، فقد أستطيعُ أن أجـدَ حيلةً للخلاصِ منه » .

ثم التفتَ إلى الجنّىِّ ، وقالَ له فى كلماتٍ مُتلعثِمةٍ : « إلى أن أستقرَّ على ما أتمناه قبل أن أغادرَ الدنيا ، أرجو أن تُخبرَنى ، كيف أصبحْتَ سجينًا داخلَ هذه الجرَّةِ ».

قالَ الجنّىُّ : « القصّةُ طويلةٌ ، ومع هذا سَأقُصُّها عليك . كنْتُ واحدًا من جنودِ النّبىِّ سُليمانَ ، الحكيمِ العظيمِ ، لكننى خالفتُ أوامرَهُ ذاتَ مرةٍ ، فغضبَ مِنّى غضبًا شديدًا ، و«عاقَبَنى بحَبْسِى فى هذه الجرّةِ ، وأغلقَها جيدًا حتّى لا أتمكّنَ من الخروجِ ، ثم ألْقَى بها فى البحرِ . »

« وعند ذلك عاهدْتُ نفسى ، أن



مَنْ يُطْلِقُ سَراحِي خلالَ المِائةِ عامٍ الأولى من بقائِي في قاعِ البحرِ ، سأجعلُهُ في غايةِ الثَّراءِ» .

«لكنْ مضـَتِ المِائَةُ عـامٍ ، ولم يُطْلِقْ سـَراحي أحـدٌ . فوعـدْتُ ، خـلالَ المائـةِ عـامٍ الـثـانيـةِ ، أن أُعـطِيَ من يُنقِذُني من سجني ، أعظَمَ كنوزِ الأرضِ ، فلم يَحْضُرْ أحدٌ لإخراجي من سجني الضيِّقِ . »



«وفي المِائةِ عامِ الثالثةِ ، عاهدْتُ نَفْسِي أنَّ مَنْ يُخرِجُني مِن تلك الجرة المشئومةِ ، سأجعلُه مَلِكًا على أكبرِ بلادِ الدنيا ، لكنْ لم يُخرِجْني أحدٌ من سِجني الفظيعِ تحتَ ماءِ البحرِ» .

« ومَضَتْ مِائةُ عامٍ رابعةٌ ، تعهَّدْتُ خِلالَها أن أُنَفِّذَ لِمَنْ يُنقِذُني ثلاثَ رغباتٍ كلَّ يومٍ ، لكن لم ينقذني أحدٌ . »

« عندئذٍ أصابَني غضبٌ شديدٌ ، فأقسمْتُ أنَّ مَنْ يُطلِقُ سراحي بعد ذلك ، سوف أقتلُهُ !! »

« والآنَ ، وقد أطلقْتَ أنت سـراحِي ، يجـبُ أن تمـوتَ . أَخْبِرْنى بسرعةٍ عن طلبِكَ الأخيرِ . »

* * *

قالَ الصيادُ لنَفْسِهِ :« هذا الماردُ دفَعَهُ غَيْظُهُ فى المرَّةِ الخامسةِ ، إلى قتلِ مَنْ يُنْقذهُ.. لماذا لم يصبرْ إلى المرَّةِ السادسة أو السابعة ؟ »

ثم تَذكَّر أنَّه هو نفسه لا يَرْمى شبكتَهُ إلاَّ أربع مراتٍ فى اليومِ ، فهمسَ لنفسهِ:

« إذا أنقذَنى الله من هذا العفريتِ المجنونِ ، سأظلُّ أُحاولُ أىّ عـددٍ من المراتِ كُلَّ يومٍ ، إلى أن يرزقنى الله شيئًا ينفعُ أُسْرَتى » .

وهنا أفاقَ من أفكارهِ على صيحةِ الماردِ ، يسألُه عن طلَبِهِ الأخيرِ قبلَ أنْ يقضى عليهِ .

لكن الصيَّادَ البائسَ لم يكن ، إلى تلك اللحظةِ ، قد استقرَّ على ما يختارُهُ قبل أن يموتَ ، فأصبحَ مُضطربًا شاردَ الذِّهْنِ ، لا يستطيعُ التفكيرَ فى شَىْءٍ إلاَّ الخطرَ الشديدَ الذى يهدّدُ حياتَهُ ، خاصةً وقد شاهد سِكّينًا كبيرًا فى يَدِ الماردِ الجبَّارِ .

تَوَسَّلَ الصيادُ إلى الجِنّىّ قائلاً : « ارْحَمْنِى ، فأنا لم أُخطِئْ فى حقّكَ . إنَّ لِى زوجةً وأطفالاً بالمنزلِ ، ماذا يفعلون إذا مِتُّ ؟! »

قال الجِنّى : « لا يَهُمُّنى هذا ، أَخبِرْنى بسرعةٍ عنْ رغبتِكَ الأخيرةِ . »

وفجأةً ، خطرَتْ لصيادِ السمكِ فكرةٌ غريبةٌ ، فأسرعَ يقولُ :

« لى طلبٌ واحدٌ ، إذا نفَّذْتَهُ سأموتُ راضِيًا . أنا لا أصدّقُ أنَّ جِنّيًا طويلاً وضخمًا مثلَكَ يُمكِنُهُ أن يدخلَ فى هذه الجرَّةِ الصغيرةِ ... إنها



لا تتّسعُ حتى لأصبعٍ واحدٍ من أصابعِ قدَمِكَ . أُريد أنْ أرى كيف تستطيعُ الدخولَ فيها . »

غَضِبَ الجِنّيُّ وقالَ : « لقد رأيْتَنِي بعينَيْكَ أخرجُ من الجرةِ . أُقسم أنّي كنتُ بداخِلها لِعِدَّةِ مئاتٍ من السّنواتِ ... لقد أخبرْتُكَ بذلك ... ألاَ تصدِّقُنِي ؟! »

تَشجَّعَ صيادُ السمكِ ، وقالَ في إِصْرارٍ : « لاَ ... لاَ أستطيعُ أن أصدِّقَكَ . أُريد أن أرى بنفسي ... هذا هو طلبي الأخيرُ ... »

عِندئذٍ تَحوَّلَ الجِنّيُّ مرةً أخرى إلى سَحابةٍ عظيمةٍ من الدُّخانِ ،

تعلّقَتْ في الهواءِ ، بينما هبطَ أحدُ طرفَيْها إلى الأرضِ .

وبدأَتِ السَّحابةُ تدخلُ ببطءٍ داخلَ الجَرّةِ .

وأخيرًا ، صفَتِ السّماءُ ، واختفى



آخرُ جزءٍ من السَّحابةِ ...

وبسرعةٍ فائقةٍ ، وضعَ الصيادُ الغِطاءَ النُّحاسِيَّ فوقَ فوّهةِ الجرةِ ، وأغلقَها بإحكامٍ .

وهكذا حَبَسَ الجِنّيَّ بداخلِها مرةً أُخرى .

ثم أمسكَ الصيادُ بالجرةِ ، وبكلِّ قوتهِ ، قذفَ بها فى الماءِ .

* * *

قال الصيادُ لنفسِهِ ، وهو ينفضُ يدَيْهِ ، كأنه تَخلَّصَ من حِمْلٍ ثقيلٍ مُزعِجٍ :

« أيها الجنيُّ الناكرُ للجميلِ .. أمامَكَ الآن آلافٌ أخرى من السنينَ ، تستطيعُ خلالَها أن تتوعَّدَ سكانَ العالمِ أجمعينَ بالفناءِ ، إذا مدَّ إليكَ أحدُهم يدَهُ بالمساعدةِ !! »

ولأولِ مرةٍ فى حياتِهِ ، يشعرُ بالسعادةِ وهو يحملُ شبكتَهُ الفارغةَ .

* * *

وعادَ إلى منزلِهِ يُغنّى ، وهو يهمسُ إلى نفسِهِ :

« كنتُ أظنُّ أن أكثرَ شَىْءٍ يُسبِّبُ لى السعادةَ ، أن تمتلئَ شبكتى بالأسماكِ . أما الآن ، فأعرفُ أن أكثرَ ما يُسبِّبُ لى السعادةَ ، هو أننى لا زلتُ على قَيْدِ الحياةِ ، أتمتَّعُ بالصحةِ التى تجعلُنى أتحمَّلُ ألَمَ الجوعِ ، ومشقةَ العملِ ، ومتاعبَ سوءِ الحظِّ !! »

* * *

وفى الطريقِ ، سَمِعَ مُناديًا يُذيعُ رسالةً من عندِ السلطانِ . كان المُنادِى



يقولُ: « ضاعَ عقدُ السلطانةِ . من يجدْهُ أو يدلّ على السارقِ ، له مكافأةٌ ألفُ دينارٍ».

لكنّ عبدَ اللهِ لم يتنبَّهْ إلى عباراتِ النداءِ ، فقد كانَ مشغولاً بالمفاجأةِ التى قلبَتْ حياتَهُ رأسًا على عَقِبٍ .

وفوجئَتْ زوجتُهُ به يدخلُ البَيْتَ ضاحكًا يُغنّى ، فامتلأتْ بالأملِ ، وصاحَتْ تُرحّبُ به : « من المُؤكّدِ أنكَ اصطدْتَ اليومَ ما يكفينا أسبوعًا أو أسبوعَيْنِ ! »

* * *

لكنّ عبدَ اللهِ أجابَها بنفسِ المرحِ : « لا أحملُ اليومَ أيةَ أسماكٍ ، لكننى لا زلتُ أحملُ روحى !! »

ولم تـفهَمِ الزوجـةُ معنى عبارةِ زوجِها . واجتمعَ حولَـهما الأبناءُ يســتمعونَ إلـى الأبِ ، وهـو يحكــى لـهم أعجـبَ قصـةٍ يُمكـنُ أن ينسجَها الخيالُ ، ويحاولُ إقناعَهم بما حدثَ له مع ذلك الجنىِّ ، الذى قابلَ معروفَهُ بالإساءةِ ، ومساعدتَهُ بالجحودِ .

قالَتْ سعدية ، وكانَتْ أصغرَ الأبناءِ : « لو كنتُ معَكَ ، لكان آخرُ ما أطلبُهُ ، أن أتحدَّى ذلك الجنىَّ الأحمقَ ، فى مباراةٍ للعبةِ الشطرنجِ » .

ضحكَ أخوها سمعان وقالَ : « لم يكُنِ الشطرنجُ معروفًا أيامَ النبىِّ سليمانَ ! »

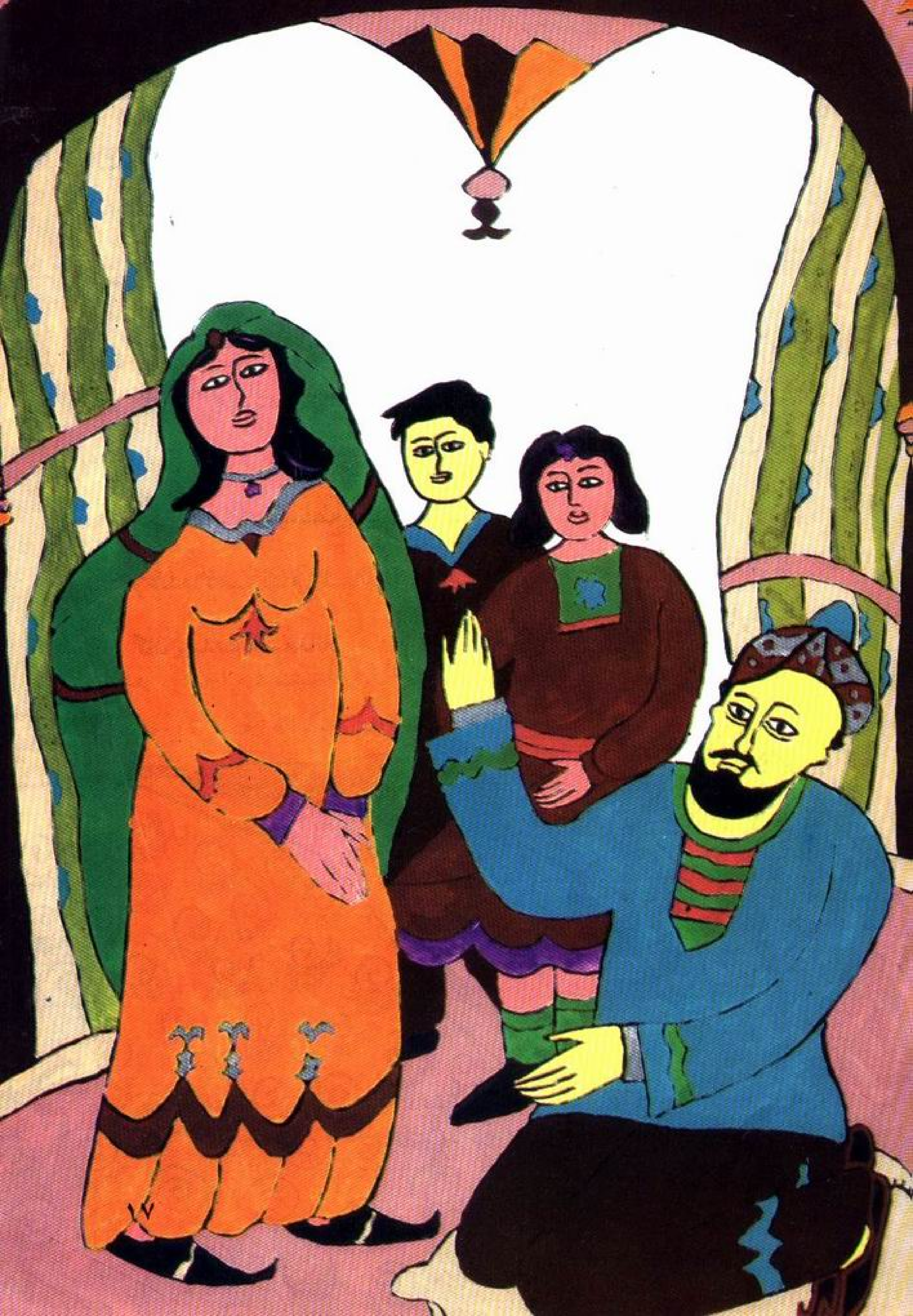
وعادَتْ سعدية تقولُ : « إذن مباراة لنطِّ الحبلِ ، وأشترطُ عليه أننى إذا غلبْتُهُ ، فإن عليه أن يُطيعَ ما آمرُهُ به ! »

نظرَ عبدُ اللهِ إلى ابنتِهِ الصغيـرةِ فى دهشـةٍ وهو يقولُ : « هل تظنيـن أننى كنتُ ألعبُ مع زميلةٍ لك فى الحارَةِ أمامَ البيتِ ؟ أقولُ لكِ إنه كان عملاقًا طولُهُ طولُ النخلةِ ! »

وفى إصرارٍ قالَتِ الصغيرةُ : « الكبارُ يظنون دائمًا أنهم قادرون على كلِّ شىءٍ ، وأننا نحن الصغارَ لا شىءَ !! ثم لا تنسَ يا أبى أنه كان « مُقَرْفَصًا » داخلَ الجرَّةِ مئاتِ السنين ، فتيبَّسَتْ عضلاتُهُ ، بينما يحتاجُ نطُّ الحبلِ إلى تدريبٍ مُستمرٍّ. من المُؤكَّدِ أنه كان سيقبلُ التحدِّىَ ، ومن المؤكد أننى كنتُ سأتغلبُ عليه ! »

* * *

ووجـدَتِ الأم أن حـديثَ ابـنتِهـا مُـسَلٍّ طـريـفٌ ، وكـانت قـد اعـتـادَتْ أن تسـمعَ منها مثلَ هذه الاقتراحاتِ والأفكارِ، التى لا تخطرُ أبدًا على بالِ الكبارِ ، فقالَتْ ضاحكةً :



« وما الذى كنتِ ستأمرين الجنىَّ أن يقومَ به يا سعدية ، إذا تفوَّقْتِ عليه فى الشطرنجِ ، أو فى نطِّ الحبلِ الذى تتحدثين عنه ؟ »

وبسرعةٍ قالَتِ الصبيةُ المُتوقِّدةُ الذكاءِ : « أطلبُ منه أن يُصبِحَ صديقى ، مثلَ الجنىِّ الذى خرجَ من مصباحِ علاءِ الدينِ ! »

وضحكَ كلُّ أفرادِ العائلةِ فى مَرَحٍ ، وهم يحمدون اللهَ على عودةِ الأبِ سالمًا ، بعد تلك المغامرةِ التى كادَتْ تذهبُ بحياتِهِ .

* * *

لكنَّ عبدَ اللهِ لم يستطعْ نسيانَ حديثِ ابنتِهِ .

وعندما ذهبَ لينامَ تلك الليلةَ ، خاصمَهُ النومُ .

كانَ يُحدِّثُ نفسَهُ قائلاً :



« هؤلاءِ الصغارُ لديهم خيالٌ خِصبٌ ، يواجهون بـه أصعبَ المواقفِ بأبسطِ الحلولِ ! لقد كنتُ أفكرُ فقط في إعادةِ ذلك الجنيِّ الأحمقِ إلى سجنِهِ ، ونسيتُ أنه كان يحدِّثني تحتَ تأثيرِ المرارةِ والغضبِ الشديدَيْنِ ، نتيجةَ حبسِهِ منفردًا تلك السنواتِ الطويلةَ» .

« أما ابنتي ، فقد فكَّرَتْ بطريقةٍ مختلفةٍ . لقد فكَّرَتْ في طريقةٍ لترويضِ ذلك المخلوقِ الهائلِ الحجمِ ، القليلِ العقلِ ، لتستفيدَ من قدراتِهِ الخارقةِ ، بدلاً من إعادَتِه في الجرةِ إلى البحرِ ، وفقْدِ فرصةٍ لا تأتي إلى الإنسانِ إلا مرةً واحدةً في عمرِهِ ، هذا إذا حدثَ وجاءَتْ !! »

* * *

لذلك لم يكنْ غريبًا ، مع طلوعِ الفجرِ ، أن يتسلَّلَ عبدُ اللهِ من بيتِهِ ، وقد حملَ شبكتَهُ فوقَ ظهرِهِ .

كانَ يقولُ لنفسِهِ : « أنا أعرفُ المكانَ الذى ألقيْتُ فيه الجرةَ ، بعد أن أغلقْتُها على الجنيِّ .. لقد أعطَيْتُهُ درسًا لن ينساهُ جزاءَ نكرانِهِ الجميلَ ، وأعتقدُ أنه لن يعودَ مرةً أخرى إلى سوءِ أدبِهِ ! »

ولدهشتِهِ الشديدةِ ، فإنه ما إن ألقَى شبكتَهُ في المكانِ الذى قذفَ إليه بالجرةِ ، حتى عرفَ أنها قد اصطادَتْ شيئًا ثقيلاً جدًّا. وعندما أفلحَ في جذبِها ، كم كانَتْ فرحتُهُ عندما وجدَ بداخلِها نفسَ الجرةِ النحاسيةِ !!

قالَ لنفسِهِ : « ها هو حظِّي الطيِّبُ قد بدأ يبتسمُ لي ، بعد أن عبسَ طويلاً ! »

* * *

وتَردَّدَ عبدُ اللهِ وهو يتأمَّلُ الغطاءَ الذى أحكمَ إغلاقَهُ منذُ ساعاتٍ ..كانَ

يُدرِكُ أنه مُقدِمٌ على مغامرةٍ شديدةِ الخطرِ .

ورأى أن يتصرَّفَ بالطريقةِ التى فكرَّتْ بها ابنتُهُ الصغيرةُ ، فاقتربَ بفمِهِ ناحيةَ فوَّهةِ الجرَّةِ ، وصاحَ بصَوْتٍ شديدِ الارتفاعِ ، كأنه يصرخُ : « أيها الجنىُّ .. هل تسمعُنى ؟! »

وفى هذه المرةِ ، سمعَ هديرًا من داخلِ الجرةِ ، كأنه صوتُ أمواجِ بحرٍ هائجٍ !

وتَشجَّعَ عبدُ اللهِ ، وعادَ يصيحُ : « هل تعلَّمْتَ أنه يجبُ أن تُحسِنَ إلى مَنْ يُحسِنُ إليكَ ؟! »

* * *

وفى هذهِ المرةِ ، تَغَيَّر صوتُ هدير البحرِ الغاضبِ من داخلِ الجرةِ ، حتى أصبحَ كأنه صَوْتُ أمواجٍ تُصافِحُ رمالَ الشاطئِ فى ودٍّ وترحيبٍ .

قالَ عبدُ اللهِ لنفسِهِ : « لقد زالَتْ لهجةُ الغضبِ ، وحلَّتْ محلَّها لغةُ السلام».

لذلك عادَ يصيحُ : « أريدُ دليلاً على توبتِكَ ، قبل أن أنزعَ غِطاءَ الجرةِ ، لأطلقَ سراحَكَ مرةً ثانيةً » .

وعادَ الهديرُ يتماوجُ من داخلِ الجرةِ ، يرتفع ثم ينخفضُ ، كأنه يحاول أن يعبِّرَ عن بعضِ الكلماتِ . وبصعوبةٍ استطاعَ عبدُ اللهِ أن يفهمَ عبارةً تقولُ :

« أَلْقِ شبكتَكَ » .

قالَ عبدُ اللهِ لنفسِهِ : « قد يكونُ كلُّ هذا الذى سمعْتُه من داخلِ الجرَّةِ وهمًا من الأوهامِ ، لكنْ ، ما الضررُ فى أن أُجرِّبَ ؟ »

وسرعانَ ما ألقَى عبدُ اللهِ شبكتَهُ فى الماءِ ، وهو لا يتوقَّعُ أن يجدَ فيها شيئًا .



كانَ يَقولُ لنفسِهِ : « يبدو أنني بدأتُ أتمتّعُ بخيالٍ واسعٍ مثلِ خيالِ ابنتي الصغيرةِ !! »

لكنه عندما بدأ في جَذْبِ الشبكةِ ، تَعذَّرَ عليه ذلك في البدايةِ ، لِثقَلِها .

لكنْ ما إن بدأتْ تخرجُ من الماءِ ، حتى رأى داخلَ خيوطِها ما أثارَ حيرتَهُ ..

لم تكنْ بها أسماكٌ ولا أصدافٌ ولا صندوقُ كنوزٍ ، ولا شَيْءٌ من نفاياتِ البحرِ .. بل كانَ بها «رجلٌ» ، ظهرَ رأسُهُ خارجَ الماءِ داخلَ خُيوطِ الشبكةِ ، وقد أخرجَ ذراعَيْهِ من فتحاتِها .

شعرَ عبدُ اللهِ بالرعبِ ، وصاحَ : « إنه يُحرِّكُ ذراعَيْهِ .. هذه ليسَتْ جثةَ رجلٍ ميتٍ ... كيف يخرجُ إنسانٌ حيٌّ من تحتِ الماءِ ؟! »

وألقَى بحبالِ الشبكةِ ، واندفع يجرِي هاربًا ، وهو يهمسُ لنفسِهِ : « أنجو من مصيبةٍ ، أقعُ في مصيبةٍ أكبرَ منها !! »

* * *

لكنه توقّفَ فجأةً ...

لقد سمعَ ضحكةً مرحةً صافيةً ، أعقبَها صوتٌ يقول في لهجةٍ هادئةٍ : «لماذا تخافُ أيها الصيَّادُ ؟ أنا إنسانٌ مثلُكَ ! »

واطمأنَّ قلبُ عبدِ اللهِ قليلاً ، فالتفتَ يتأمَّلُ ذلك المخلوقَ الذى أخرجَتْهُ الشبكةُ .

قالَ له الرجلُ الخارجُ من البحرِ : « لماذا لا تنزعُ من حولِي حبالَ هذه الشبكةِ ؟»

قالَ عبدُ اللهِ في تردُّدٍ : « لقد عانيْتُ من سكانِ البحرِ ، ما يجعلُني أراجعُ نفسي ألفَ مرةٍ ، قبل أن أُطلِقَ سراحَ واحدٍ منهم !

ثم أخذَ عبدُ اللهِ يحكى ، فى انفعالٍ شديدٍ ، وفى عباراتٍ متقطعةٍ مُختصَرةٍ ، حكايتَهُ مع جنىِّ الجرةِ .



وعندما انتهَى ، قال له الرجلُ الذى فى الشبكةِ :

« الجنىُّ الذى فى الجرةِ قد أجابَ فجرَ اليومِ عن أسئلتِكَ بلغةِ البحرِ ، وهو صادقٌ فيما فهمْتَهُ منه . لقد هدأ غضبُهُ وتحرّرَ من قَسَمِهِ . البحرُ عندما يهدأ هديرُ أمواجِهِ الغاضبةِ ، فمعنى هذا أنه يعرضُ الأمنَ والسلامَ . ولكى تُصدّقَهُ ، أرشدَكَ فاصطادَتْنى شبكتُكَ ، أو أوقعنى فى حبالِ شبكتِكَ ، لأكون سببَ خَيْرٍ كثيرٍ لك» .

وتوقّفَ لحظةً ، ثم سألَ : « ما اسمُكَ ؟»

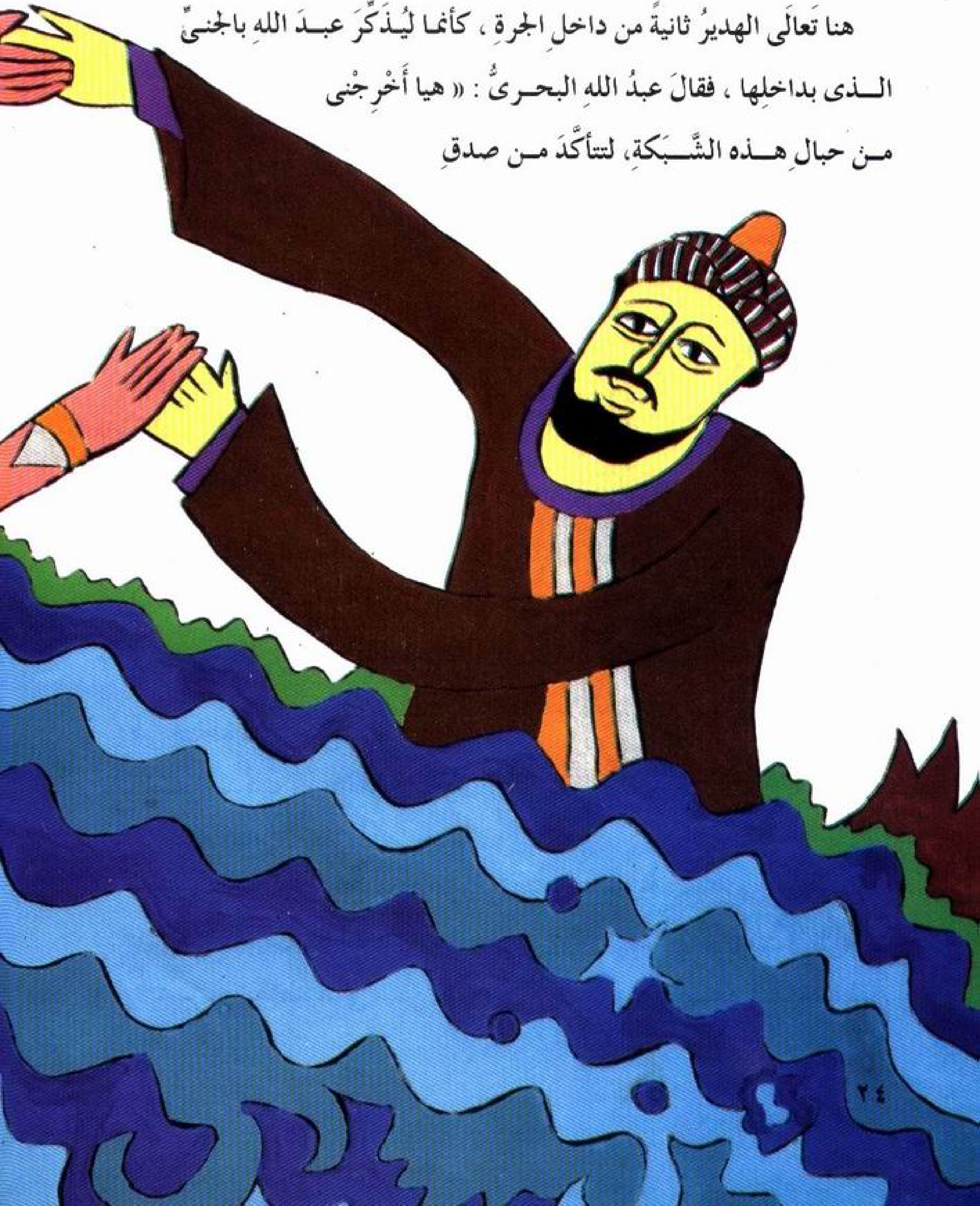
أجابَهُ الصيّادُ : « اسمى عبدُ اللهِ».

فى فرحةٍ قالَ رجلُ البحرِ : « وأنا أيضًا اسمىعبدُ اللهِ .. عبدُ اللهِ البحرىُّ . فأنا من أبناءِ البحرِ ، وكلُّ أهلى يعيشون فيه . هيا نتعاهدُ على الصداقةِ . وفى مثلِ هذه الساعةِ من كلِّ يومٍ ، نتقابلُ هنا ، فأعطيكَ ما تشاءُ من ثرواتِ البحرِ ، مثلِ اللؤلؤ والمرجانِ وتعطينى من ثرواتِ الأرضِ ما لا نجدُهُ عندَنا فى

قــاعِ البحــرِ ، مثلِ الفاكهةِ والخضراواتِ» .

* * *

هنا تَعالَى الهديرُ ثانيةً من داخلِ الجرةِ ، كأنما ليُذَكِّرَ عبدَ اللهِ بالجنيِّ الــذى بداخلِها ، فقالَ عبدُ اللهِ البحــرىُّ : « هيا أَخْرِجْنى مــن حبالِ هــذه الشَّــبَكةِ، لتتأكَّدَ مــن صدقِ



ما حاولَ الجنىُّ إبلاغَهُ إليك » .

ومع أن عبدَ اللهِ البرىّ ظلّ مُتردّدًا قَلِقًا ، فقد أخرجَ عبدَ اللهِ البحرِىّ من الشبكةِ .

وتَقدَّمَ البحرِىُّ يُعانِقُ البرىّ ، ويشكرُهُ فى حرارةٍ ، لأنه وَثِقَ فى كلامِهِ .



هنا تأكّدَ عبدُ اللهِ البرىُّ أن عبدَ اللهِ البحرىّ شخصٌ صادقٌ وأمينٌ ، وأن الجنىّ لم يخدعْهُ هذه المرةَ ، فاتّجَهَ إلى الجَرّةِ ، وبدأ فى فتحِ غِطائها النُّحاسِىّ.

وفى هدوءٍ ، انسابَ منها الدخانُ الكثيفُ ، ثم ارتفعَ إلى عنانِ السماءِ ... وظلَّ يرتفعُ ويرتفعُ ، إلى أنْ غابَ وسطَ سحابٍ أبيضَ كثيفٍ .

قال الصياد لنفسه : « ها هو الجنى قد اختار أن يختفى من حياتى ، لكننى أرجو أن يظل يعاوننى ، عن طريقِ عبد اللهِ البحرىّ ، كما سبق وعاون الجنىُّ علاء الدين!! » .

* * *

وعادَ عبدُ اللهِ البحرىُّ يقولُ لعبدِ اللهِ البرىّ : « لا تنسَ .. سنلتقى هنا فى نفسِ هذا الوقتِ كلَّ يومٍ .. لكنْ يجبُ أن يظلَّ اتفاقُنا هذا سرًّا بيننا ،لا يعرفُ به أحدٌ غيرُنا . ولكى يطمئنَّ قلبُكَ ، انتظِرْنى هنا قليلاً » .

ووقفَ عبدُ اللهِ البرىُّ صامتًا ، يراقبُ عبدَ اللهِ البحرىَّ وهو يغوصُ فى الماءِ.

لم يكنْ يصدّقُ أنه سيراهُ ثانيةً .

لكنَّ الماءَ انشقَّ بعدَ قليلٍ ، وظهرَ منه عبدُ اللهِ البحرىّ ، وهو يحملُ وعاءً مصنوعًا من أعشابِ البحرِ ، أعطاهُ لعبدِ اللهِ الصيّادِ .

* * *

وظنَّ الصيادُ أنه يحلمُ ، فلم ينطقْ بحرفٍ ، مع أنه وجدَ نفسَهُ يحملُ



الوعاءَ ، الذى وجدَهُ ثقيلاً جدًّا .

وظلّ الصيادُ يراقبُ عبدَ اللهِ وهو يعودُ إلى الماءِ ، ويختفي تحتَهُ . عندئذٍ تنبَّهَ ، وكأنه أفاقَ من حلمٍ ، وفتحَ الوعاءَ ، فلم يصدّقْ عينَيْهِ .

ولكي يتأكّدَ مما يرى ، دسَّ أصابعَهُ بين كومِ اللؤلؤِ والمرجانِ الذى امتلأ به الوعاءُ .

وتوقَّفَ عقلُهُ عن التفكيرِ ، وقد أصبحَ كأنه تمثالٌ جامدٌ لا روحَ فيه !!

وأخيرًا ، استجمعَ بعضَ شتاتِ تفكيرِهِ ، وجمعَ شبكتَهُ ، ولفَّها حولَ الوعاءِ المصنوعِ من نباتاتِ البحرِ ، واستدارَ ليعودَ إلى بيتِهِ ، وهو لا يكادُ يرى طريقَهُ ..

لقد أصبحَ كمَنْ يسيرُ أثناءَ نَوْمِهِ .. أو كأنه فى حلمٍ !!

* * *

وفى طريقِهِ ، مَرَّ على صديقِهِ الخبَّازِ ، فوجدَهُ قد أعَدَّ له كيسًا فيه بعضُ الخبزِ ، مثلما اعتادَ أن يفعلَ فى أيامٍ كثيرةٍ .

لكنَّ عبدَ اللهِ ، فى ذلك اليومِ ، مدَّ يدَهُ ، لا ليأخذَ الخُبْزَ ، بل ليُعيدَ كيسَ الخبزِ بما فيه إلى صاحبِهِ ، وهو يقولُ له فى لهجةٍ غريبةٍ :

«بل أنا الذى سأردُّ إليك اليومَ بعضَ ديونكَ !!»

وظنَّ الخبازُ أنه لم يسمعْ جيدًا عبارةَ الصيادِ ، وظلَّ يحاولُ فَهْمَ معناها ، وهو يُراقِبُ عبدَ اللهِ الصيَّادَ يَفرُدُ شبكتَهُ ، ويفتحُ من داخلِها الوعاءَ المصنوعَ من أعشابِ البحرِ ، الذى كان قد أخذَهُ من عبدِ اللهِ البحرِىِّ .

ثم يراقِبَهُ وهو يدسُّ يدَهُ فى الوعاءِ ، ويملأ قبضتَهُ من محتوياتِهِ ، ويضعُ بين يدَىِ الخبازِ عددًا كبيرًا من حبَّاتِ اللؤلؤ وقِطَعِ المَرْجانِ !!

* * *

هنا فقط بدأ الخبازُ يفهمُ شيئًا مما قالَهُ الصيادُ ، لكنه مع ذلك لم يصدِّقْ عينَيْهِ!!

وعندما فهمَ ، صاحَ : « قلْتُ لك مرارًا ، إن اللهَ سيُعطيكَ أضعافَ ما تتمنَّى».

قالَ عبدُ اللهِ وهو يُشيرُ إلى ثروةِ اللآلئِ التى وضعَها بين يدَىِ الخبّازِ : « خُذْها .. أنت تستطيعُ بَيْعَها » .

وبدلاً من كيسِ الخبزِ ، وضعَ الخبازُ بين يدَىْ عبدِ اللهِ الصياد ، كيسَ نقودِهِ كلَّهُ !!

وبعدَ ساعاتٍ ، عادَ عبدُ اللهِ الصيادُ إلى بيتِهِ ، يحملُ كمِّياتٍ كبيرةً من الطعامِ والفاكهةِ والحلوى ، لزوجتِهِ وأبنائِهِ سامع وسمعان ، والصغيرةِ سعدية الذكيةِ !!

* * *

وفى اليومِ التالى ، فى الموعدِ المُتَّفَقِ عليه ، انطلقَ عبدُ اللهِ البرىُّ إلى لقاءِ صديقِهِ



البحرِيّ ، وقد حملَ معه « قُفَّة » كبيرةً ، حافلةً بأشهى أنواعِ الفاكهةِ ، من عنبٍ وتينٍ ورُمَّانٍ ، مع كمياتٍ من الخضراواتِ الطازجةِ .

وعندَ شاطئِ البحرِ ، وجدَ عبدَ اللهِ البحرِيَّ في انتظارِهِ ، فقالَ له وهو يُعطيهِ القفة : «أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في إحضارِ بعضِ ما يتعذَّرُ عليكم أنْ تجدوه تحتَ الماءِ ».

أجابَهُ عبدُ اللهِ البحرِيُّ : « لم أكُنْ أتوقَّعُ أن تحافظَ على وعدِكَ وميعادِكَ بهذه الدقةِ ، فقد سمعْتُ أن كثيرًا من أهلِ الأرضِ لا يحافظون على وعدٍ ولا على ميعادٍ » .

ثم نزلَ تحتَ الماءِ ، وعادَ بعدَ قليلٍ ومعه القفةُ قد امتلأَتْ باللآلئِ الثمينةِ .

* * *

واستمرَّ الحالُ على هذا النَّحْوِ . ففي كلِّ يَوْمٍ ، يحملُ عبدُ اللهِ البرِّيُّ من المدينةِ قفةً ملآنةً بالفاكهةِ ، ويعودُ بها ملآنةً باللآلئِ ، التي يحفظُ معظمَها في بيتِهِ ، ويُعطِي بعضَها لصديقِهِ الخبازِ .

* * *

وشيئًا فشيئًا ، استطاعَ عبدُ اللهِ البرِّيُّ أن يرتفعَ بمستوى معيشةِ أسرتِهِ ، فارتدَوْا ملابسَ أفضلَ ، والتحقَتْ سعدية الذكيةُ بالمدرسةِ ، وامتلأَ البيتُ بأثاثٍ جديدٍ ، بعد أن قاموا بطلاءِ البيتِ وتجديدِهِ .كما استطاعَتْ سعدية الذكيةُ أن تُقيمَ لنفسِها مكتبةً ازدحمَتْ بالكُتُبِ ، في أحدِ أركانِ غرفةٍ خَصَّصوها لها ، بعد أن كانَتْ حائرةً بين غرفةِ أبوَيْها ، وغرفةِ أخوَيْها .

وعندئذٍ وجدَ عبدُ اللهِ البرّيُّ أنه يستطيعُ الذهابَ بنفسِهِ ليبيع بعض ما عندَهُ من لآلئَ ، بدلاً من تسليمِها إلى الخبازِ ليبيعَها له .

وهكذا اختارَ لؤلؤةً كبيرةً ، جميلةً ، كاملةَ الاستدارةِ ، وذهبَ بها فى الصباحِ الباكرِ إلى كبيرِ تُجّارِ الجواهرِ والأحجارِ النفيسةِ ، والذى يعرفونَهُ بلقبِ «شهبندر التجار» ، وعرضَها عليه .



وكانَ الشهبندر مشهورًا بالمكرِ ، فسألَ عبدَ اللهِ ، وهو يتأمَّلُ اللؤلؤةَ بإعجابٍ شديدٍ حاولَ أن يكتمَهُ : « هل عندَكَ لآلئُ أخرى مثلُ هذه ؟ »

وبحسنِ نيةٍ ، ظنّ عبدُ اللهِ أن الشهبندر ينوى أن يشترىَ منه كلَّ ما لدَيْهِ ، فقالَ فى ثقةٍ : «عندى الكثيرُ والحمدُ للهِ » .

* * *

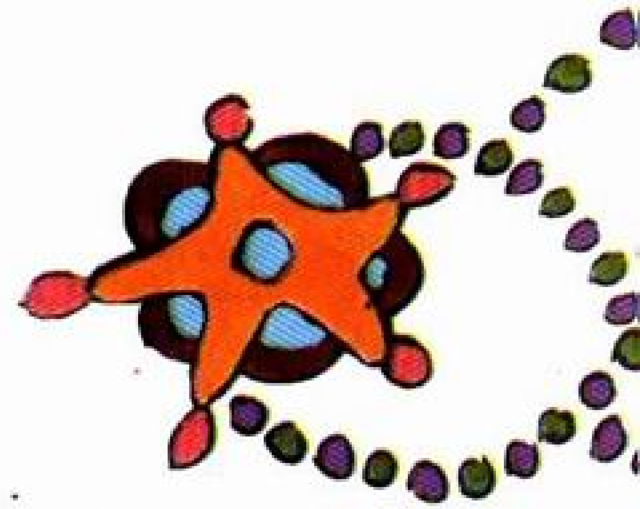
عندئذٍ قال الشهبندر ، وهو يتظاهرُ بأنه يُعيدُ اللؤلؤةَ إلى عبدِ اللهِ ، كأنما لا يهتمُّ بالحصولِ عليها : « لن أدفعَ فى هذه اللؤلؤة أكثر من مائةِ دينارٍ » .

قالَ عبدُ اللهِ : « باركَ اللهُ لكَ فيها » .

عندئذٍ همسَ شيخُ التجارِ لنفسِهِ : « هذا رجلٌ لا يعرفُ قيمةَ ما يبيعُ ، ولابد أن أكشفَ حقيقةَ أمرِهِ » .

وفوجئَ عبدُ اللهِ بشهبندر التجارِ يتخلّى عن تحفُّظِهِ وتبسُّطِهِ، وينقضُّ عليه فيُمسِكُهُ بقوةٍ من ملابسِهِ ، وقد ظهرَتْ على وجهِهِ ملامحُ القسوةِ والعدوانِ .

ثم قفزَ واقفًا على قدمَيْهِ ، وأشارَ في عنفٍ إلى عُمَّالِهِ وهْو يصيحُ : «اقبضوا على هذا الرجلِ ! »



وسرعانَ ما أحاطَ ثلاثةُ رجالٍ أَشِدَّاءُ بعبدِ اللهِ ، أمسكوا به ، وشَلُّوا حركتَهُ ، بينما عبدُ اللهِ يصيحُ في دهشةٍ : « أنتم مُخطِئونَ .. أنا رجلٌ شريفٌ .. ماذا فعلْتُ لتقبضوا علَيَّ ؟! » لكن أحدًا لم يُصْغِ إلى صيحاتِهِ .

ثم أرسلَ الشهبندر رئيسَ عُمَّالِهِ إلى القصرِ السلطانِيِّ ، ومعه رسالةٌ يقولُ فيها:

« مولاى .. لقد استطَعْتُ الإمساكَ باللصِّ الذى سرقَ عقدَ مولاتِنا السلطانةِ ، فقد جاءَنى يبيعُ لؤلؤةً منه » .

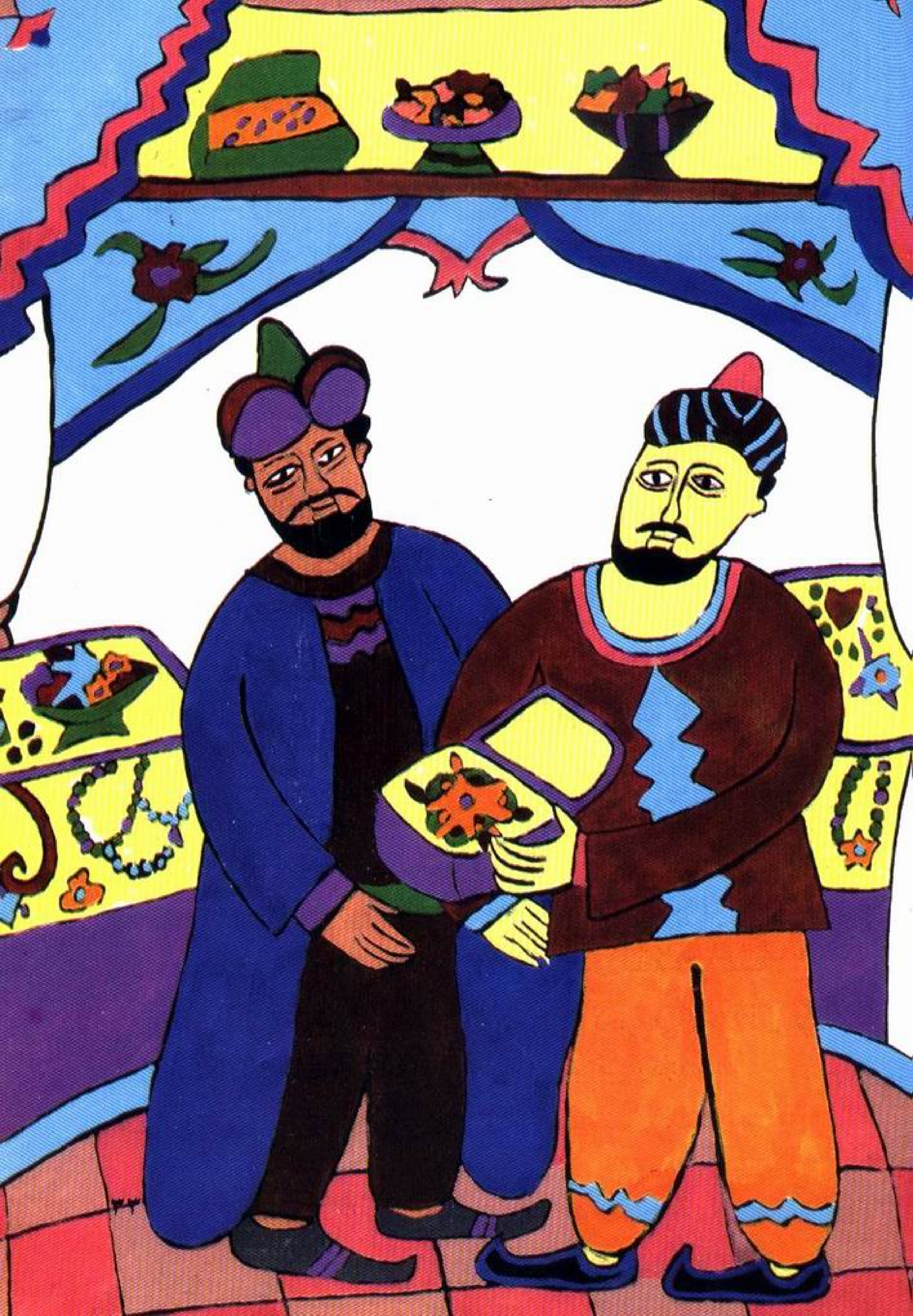
وسرعانَ ما وجدَ عبدُ اللهِ نفسَهُ مُقيَّدًا بالسلاسلِ ، يقودُهُ الرجالُ إلى القصرِ.

وهناك أجبروه على الركوعِ أمامَ عرشِ السلطانِ .

هنا همسَ عبد الله الصيادُ إلى نفسِهِ ، وقد ملأه الهمُّ والغَمُّ : « ها هو الحلمُ ، قد تحولَّ إلى كابوسٍ !! »

***

وتأمَّلَ السلطانُ اللؤلؤةَ التى سلَّمَها إليه شيخُ التُّجَّارِ ، فتعَجَّبَ من كِبرِ حجمِها



وجمالِ شكلِها ، ثم أرسلَها إلى السلطانةِ مع رسالةٍ يقولُ فيها :

«لكى تتأكَّدِى أن حولَ السلطانِ رجالاً أمناء مُخلِصين ، أُرسِلُ إليك إحدى لآلئ عقدِكِ المسروقِ » .

* * *

وفوجئَ شهبندر التجار بما فَعَلَه السلطانُ ، فهمَسَ لنفسهِ فى اسْتياءٍ حاولَ أن يُداريه :

« لماذا يجعلُ هذا السلطانُ للنساءِ دورًا فى شئونِ المالِ ؟ كان الأفضلُ أن يأمرَ فورًا بقتلِ هذا الصيادَ الساذجَ بتهمةِ السرقةِ ، ثم يصادرُ كلَّ ما عنده من لآلئٍ ، أستطيع أن أبيعها بعدئذٍ بربحٍ كبيرٍ لحسابِ السلطانِ !!

وازداد غيظ الشهبندر ، عندما أعادَتِ السلطانةُ اللؤلؤةَ إلى زَوْجِها السلطانِ ، مع رسالةٍ تقولُ فيها :

« لقد تأكّدْتُ أن هذه اللؤلؤةَ أكبرُ وأجملُ من كلّ حباتِ العقدِ الذى سُرِقَ ، وهو هديتُكَ لى يومَ الزفافِ ، والذى قلْتَ لى عنه إنه يضمُّ أكبرَ حبَّاتِ اللؤلؤِ التى عرفَها البشرُ !! »

وفَهِمَ السلطانُ عتابَ زوجتِهِ ، فسألَ عبدَ اللهِ : «من أين أتَيْتَ بهذه اللؤلؤةِ ، وأنت صيّادٌ فقيرٌ ؟ »

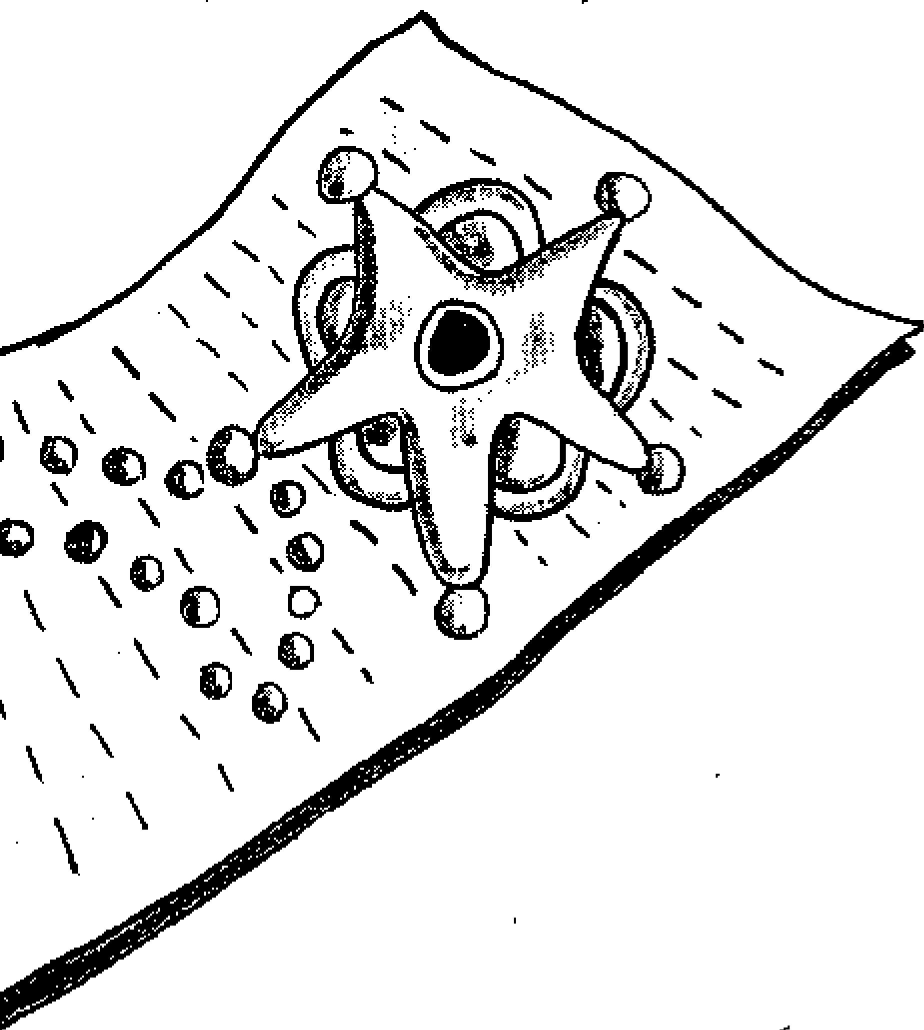
وفى سرعةٍ دارَتْ أفكارٌ كثيرةٌ فى خاطرِ عبدِ اللهِ .. فلابدَّ أن يَحْرِصَ على كتمانِ سرِّ علاقتِهِ بعبدِ اللهِ البحريِّ ، تنفيذًا للوعدِ الذى قطعَهُ على نفسِهِ .

وفى نفسِ الوقتِ ، لابدَّ أن يكشفَ كلَّ أسرارِ ما يُخفيهِ فى بَيْتِهِ ،لأنه واثقٌ أن رجالَ السلطانِ سرعان ما سيقومون بتفتيشِ كلِّ رُكْنٍ من أركانِ منزلِهِ .

لذلك أجابَ السلطانَ قائلاً :

« اللؤلؤُ من خيراتِ البحرِ يا مولاى ، والبحرُ هو مكانُ عملى ، أنا وأجدادى وأبنائى . وقد رزقَنى اللهُ من فضلِهِ بعددٍ كبيرٍ من أمثالِ هذه اللؤلؤةِ ، كلُّها عندى فى البَيْتِ » .

وانتهزَ شهبندر التجار الفرصة ، ليثيرَ غضبَ السلطانِ على عبد الله ، فاندفع قائلاً : « لم يسبقْ لأحدٍ أن استطاعَ العثورَ وحدَهُ على عددٍ كبيرٍ من اللآلئ فى مثلِ هذا الحجمِ الكبيرِ والجمالِ البديعِ ! اعترافه هذا دليلٌ على صحةِ الاتهامِ .. يستحيلُ أن يحصلَ على هذه اللآلئِ بطريقٍ شريفٍ ! »



فى تلك اللحظةِ ، دخلَ قاعةَ العرشِ رسولٌ من عندِ السلطانةِ وقالَ :

« السلطانةُ تقولُ إنها قد وجدَتِ العقدَ المفقودَ يا مولاى . كانت قد وضَعتْهُ فى جيبِ ثوبٍ لها ، ثم نَسِيَتْ أَمْرَ ذلك الثوبِ ، فلم تتذكَّرْ أن ترتديَهُ ثانيةً » .

ثم تَوقَّفَ رسولُ السلطانةِ لحظةً ، ليستأنفَ حديثَهُ فى صَوتٍ واضحِ النبرات :

« وجلالتُها السلطانيةُ تقولُ : لم يعُدْ هناك محلٌّ لأن نظلمَ أحدًا ، ونتَّهمَهُ بسرقةِ العقدِ . كما طلبَتْ أن أُبلغَ جلالتَكم أن اللؤلؤة أعجبَتْها ، وترغبُ فى شرائها ، لأنها لم تسمعْ من قبلُ بوجودِ مثيلٍ لها» .

* * *

وعندما سمعَ السلطانُ رسالةَ زوجتِهِ ، زادَتْ دهشتُهُ وتعجُّبُهُ ،

وصاحَ في شهبندر التُّجَّارِ :

« إذا كانَتْ جلالتُها لم تسمعْ من قبلُ بوجودِ مثلِها ، فلا يُمكِنُ أن يسرقَ إنسانٌ شيئًا لم يكُنْ موجودًا من قبلُ . وكان الأولى بكَ يا شيخَ تُجّارِ الجواهرِ ، أن تعرفَ ذلك ، وتُنبِّهَني إليه ، بدلَ أن تأتِيَ لتتّهمَ هذا الرجلَ بغَيْرِ ذنبٍ ارتكبَهُ . لقد أردْتَ إيذاءَ هذا الرجلِ الصادقِ ، الذي رزقَهُ اللهُ بما لم يسبقْ أن رزقَ غَيْرَهُ به » .

ثم التفتَ السلطانُ إلى عبدِ اللهِ وقالَ : « هل أستطيعُ رؤيةَ ما لدَيْكَ من لآلئَ أخرى؟ »

قالَ عبدُ اللهِ : « بيتي مُتواضِعٌ يا مولاي ، لكنه سيزدادُ شرفًا بزيارةِ عَظَمَتِكم . إن ما عندي من لآلئَ شَيْءٌ كثيرٌ ، قد يستغرقُ نقلُهُ إلى هنا وقتًا طويلاً » .

وكانَ في استطاعةِ السلطانِ أن يأمرَ بنقلِ كلِّ ما عندَ عبدِ اللهِ إلى القصرِ ، لكنَّ حبَّ الاستطلاعِ دفعَهُ إلى المُوافقةِ على زيارةِ البيتِ المُتواضعِ لذلك الصيادِ ، لعله يعرفُ بعضَ أسرارِ الحياةِ ، ويتأمَّلُ حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، عندما يختارُ جَلَّ جلالُهُ أحدَ عبادِهِ الصالحين ، من بينِ الناسِ أجمعين ، ليُنعِمَ عليه بمثلِ هذه الثروةِ الطائلةِ .

* * *

وذهبَ السلطانُ معَ عبدِ اللهِ ، ورأى اللآلئَ والمرجانَ المُكدَّسَ في بيتِهِ الصغيرِ ، الذي أصبحَ بيتًا جميلاً نظيفًا مريحًا ، فكادَ يَفْقِدُ عقله من شدةِ الدهشةِ .

لقد وقفَ السلطانُ أمامَ أكوامِ تلك الثروةِ الطائلةِ الثمينةِ وهو يقولُ :

« سُبحانَ اللهِ الرزَّاقِ الوهَّابِ .. يُعطِي مَنْ يشاءُ بغَيْرِحسابٍ .. »



ثم التفتَ إلى عبدِ اللهِ وقالَ له :

«لكنَّ وجودَ كلِّ هذا الكنزِ الكبيرِ في بيتِكَ ، خطرٌ على حياتِكَ وحياةِ أولادِكَ . أقترحُ عليك أن تنتقلَ أنت وأسرتُكَ وكلُّ ما تملكُ إلى قصري ، حيث أجعلُكَ من رجالي الذين أستشيرُهم وأستمعُ إلى آرائهم .

فمَنْ أعطاهُ اللهُ كلَّ هذا الخيرِ ، لا شكَّ في أنه رجلٌ صالحٌ ، يراعي اللهَ وضميرَهُ في كلِّ ما يقومُ به من أعمالٍ وأقوالٍ » .

وهكذا انتقلَ عبدُ اللهِ البرِّيُّ مع أسرتِهِ وكلِّ ما لديهِ من لآلئَ ومرجانٍ ، إلى جناحٍ في القصرِ السلطانِيِّ .

وأعلنَ السلطانُ أنه عيَّنَ عبدَ اللهِ مُستشارًا له ، وخصَّصَ له غرفةً تُجاوِرُ قاعةَ العرشِ السلطانِيِّ .

* * *

وهكذا بدأ ذلك النهارُ بتهمةٍ باطلةٍ ، كانَ يُمكِنُ أن تقضِيَ على حياةِ عبدِ اللهِ البرِّيِّ ، وانتهَى بأن أصبحَ عبدُ اللهِ أكثرَ المُقرَّبينَ إلى السلطانِ .

* * *

لكنَّ هذا الانقلابَ الكبيرَ السريعَ في حياةِ عبدِ اللهِ الصيادِ ، لم يُنْسِهِ مَوْعِدَهُ اليومِيَّ ، الذي كان يُريدُ أن يطيرَ إليه ، لينقلَ إلى صديقِهِ عبدِ اللهِ البحرِيِّ ، أخبارَ ما هيَّأَهُ اللهُ له من حظٍّ طَيِّبٍ .

واستمعَ البحرِيُّ إلى أخبارِ البرِّيِّ المُثيرةِ ، ثم فاجأهُ قائلاً :

« إنك رأيْتَ اليومَ عظمةَ بيتِ سلطانِكم وجمالَهُ ، وأتمنّى أن تزورَنا في البحرِ ، لترى نوعًا آخرَ من الجمالِ والعظمةِ .. إنها عظمةُ وجمالُ ما خلقَ اللهُ تحتَ ماءِ البحرِ » .

قالَ عبدُ اللهِ البرّىُّ ، وقد تَذكَّرَ أولَ مرةٍ شاهدَ فيها عبدَ اللهِ البحرىَّ يخرجُ من الماءِ : « لكنك تعرفُ أننى من أبناءِ البرِّ ، الذين يتعذَّرُ عليهم العَيْشُ مثلَكم تحتَ الماءِ ! »

ضحكَ عبدُ اللهِ البحرىُّ وقالَ : « هذا صحيحٌ يا أخى .. لكننى سمعتُ أن بعضَ العلماءِ عندكم ، فى طريقِهم إلى اختراعِ أداةٍ أو جهازٍ ، يقومُ بما تقومُ به الخياشيمُ للأسماكِ ، يستخلصُ الهواءَ اللازمَ للتنفُّسِ من ماءِ البحرِ نفسِه » .

أجابَهُ عبدُ اللهِ البرّىُّ ضاحكًا : « إذن فموعدُ زيارتى لكم ، نحدِّدُهُ عندما يتحقَّقُ اختراعُ هذا الجهازِ!



* * *

أجابَهُ عبدُ اللهِ البحرىُّ قائلاً : « ما دُمْتَ معى ، فأنت لسْتَ فى حاجةٍ إلى أىِّ اختراعٍ . سأُعطيكَ دهانًا تدهنُ به جسمَكَ ، فتستطيعُ أن تبقَى تحتَ الماءِ بغيرِ أن يُصيبَكُ سوءٌ . وهذا الدهانُ نستخرجُهُ من كَبِدِ حيوانٍ بحرىٍّ نادرٍ اسمُهُ « الدندان» ، وهو أقوى مخلوقاتِ البحرِ وأخطرُها علينا ».

«ومع أنه من الحيواناتِ البحريةِ وليسَ من الأسماك ، يتنفَّسُ الهواءَ الجوِّىَّ ويلدُ صغارَهُ ويُرضِعُها مثلَ الحيتانِ وسباعِ وعجولِ البحرِ ، فإنه ، بفضلِ هذا الدهانِ الذى يُفرِزُهُ جلدُهُ فيُغطِّى جسمَهُ ، يستطيعُ البقاءَ أيامًا تحتَ الماءِ ، لأنه

يستخلصُ به الهواءَ اللازمَ للحياةِ من ماءِ البحرِ ، ويتنفّسُ بجلدِهِ مثلَ بعضِ أنواعِ الضفادعِ !!» «لكنه يخافُ الإنسانَ جدًّا ، لأن رائحةَ الإنسانِ تقتلُهُ ، لذلك يبتعدُ عن « أيِّ أرضٍ بها بشرٌ . ولهذا لا أعتقدُ أن إنسانًا قد شاهدَ ذلك المخلوقَ شديدَ الخطرِ علينا».

* * *

ومع شدَّةِ رغبةِ عبدِ اللهِ البرّيِّ في القيامِ بتلك المغامرةِ تحتَ الماءِ ، في صحبةِ صديقِهِ عبدِ اللهِ البحريِّ ، فقد انتظرَ أيامًا ، إلى أنْ وجدَ مُناسبةً ليستأذنَ السلطانَ .

قالَ عبدُ اللهِ البرّيُّ للسلطانِ : « لقد نشأتُ أعملُ في البحرِ يا مولاى . وأرجو أن تأذنَ لى أن أقومَ برحلةٍ بحريةٍ ، أستعيدُ فيها ذكرياتِ أيامي مع البحرِ » .

وبعدَ أن حصلَ على إذنِ السلطانِ ، دهنَ عبدُ اللهِ البرّيُّ جسمَهُ بالدهانِ الذى أحضرَهُ له عبدُ اللهِ البحريُّ ، ثم نزلَ معه إلى البحرِ .

ومشى عبدُ اللهِ البرّيُّ تحتَ الماءِ فوقَ القاعِ ، كأنه يمشى على سطحِ اليابسِ ، وقد اتخذَ من عبدِ اللهِ البحريِّ دليلَهُ ، الذى يقودُهُ بين غاباتِ وحدائقِ قاعِ البحرِ الرائعةِ ، المختلفةِ الألوانِ والأشكالِ ، ووسطَ صُخورِ المَرْجانِ وشعابِهِ الجميلةِ ، تُحيطُ بهما أسماكٌ غريبةٌ وعجيبةٌ ، لم يسبقْ لعبدِ اللهِ البرّيِّ أن رأى مثلَها ، مع طولِ ما عملَ بالصَّيْدِ ، وكثرةِ ما اصطادَ من أسماكٍ .

* * *

وفجأةً ، وفيما هما يقتربانِ من المدينةِ البحريةِ ، التى يعيشُ فيها عبدُ اللهِ البحريُّ مع أسرتِهِ ، سمعَ الصديقانِ ضجَّةً عاليةً ، واضطربَ ماءُ البحرِ حولَهما



اضطرابًا شديدًا ، وأسرعَتِ الأسماكُ تهربُ مُبتعِدةً ، والنباتاتُ تتمايلُ فى عنفٍ كأنها ستتحطَّمُ .

وأمسكَ عبدُ اللهِ البحرِىُّ بذراعِ صديقِهِ البرِّىِّ ، يوقِفُهُ بغَيْرِ حركةٍ ، وهو يقولُ فى قَلَقٍ شديدٍ :

« هذه علاماتٌ تؤكِّدُ أن جماعةً كبيرةً من عَدُوِّنا الدندانِ ، تتجمَّعُ لتقومَ بغارةٍ علينا . لكنْ يبدو أنها شمَّتْ رائحتَكَ ، فأسرعَتْ تحاوِلُ الهَرَبَ

والابتعادَ خـوفًا مـن المَوْتِ . إن الحظَّ الحَسَنَ يُرافِقُكَ حيثما تسيرُ ، واليوم نفوزُ منه بنصيبٍ وافرٍ كبيرٍ » .

وقبل أن يُتِمَّ عبدُ اللهِ البحريُّ كلامَهُ ، اشتدَّ اضطرابُ الماءِ ، وظهرَ حيوانٌ عجيبُ الشكلِ ، يدورُ حولَ نفسِهِ في جنونٍ . ثم انقلبَ على ظهرِهِ ، وسكَنَتْ حركتُهُ ، وبعدَها غاصَ بغيْرِ حركةٍ إلى القاعِ .

همسَ عبدُ اللهِ البحريُّ : « هذا واحدٌ من وحوشِ الدندان ، قتلَتْهُ رائحتُكَ ، قبلَ أن ينجحَ في الهجومِ على مدينتِنا » .

ثم حدثَ نفسُ الشَيْءِ مع حيوانٍ ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ .. يدورُ الواحدُ منها حولَ نفسِهِ ، ثم ينقلبُ على ظهرِهِ ، وتكفُّ حركتُهُ ، ثم يغوصُ ليرتمِيَ ميتًا فوقَ القاعِ ، وقد قتلَتْهُ رائحةُ إنسانِ البرِّ !!

* * *

وشاعَ النبأ في مملكةِ البحرِ كلِّها ، فخرجَ أهلُها جميعُهم يستقبلونَ مُنقِذَهم ، البطلَ عبدَ اللهِ البرّيَّ ، بالترحيبِ والحبِّ .

* * *

وأمضَى عبدُ اللهِ البرّيُّ أربعينَ يومًا في ضيافةِ صديقِهِ عبدِ اللهِ البحريِّ ، يُشاهِدُ في كلِّ يَوْمٍ مِن المخلوقاتِ والنباتاتِ ما لم يتصوَّرْ أن يرى مثلَهُ في الشكلِ أو اللَّوْنِ ، أو أساليبِ الحركةِ ، أو الاختباءِ من الأعداءِ .

كان يقولُ : « العالَمُ تحتَ الماءِ عجيبٌ غريبٌ ، لم يكتشفِ الإنسانُ من أسرارِهِ إلا أقلَّ القليلِ . إنه عالَمٌ يختلفُ كثيرًا عن العالَمِ فوقَ سطحِ اليابسِ ، ويمتلئُ بأنواعٍ أكثرَ بكثيرٍ مما يصادفُهُ الإنسانُ خارجَ الماءِ . كما أنها تختلفُ عن مخلوقاتِ اليابسِ في تنوُّعِها ، وأشكالِها ، وطُرُقِ تكاثُرِها ، وأساليبِ حصولِها على الغذاءِ ، وكيفيةِ

مقاومةِ الأعداءِ » .

* * *

وكان لابد أن يأتِيَ اليومُ الذى يقولُ فيه عبدُ اللهِ البرّىُّ لصديقِهِ البحرِىِّ :

« مع إعجابى الشديدِ بهذا العالمِ المُدهِشِ المُثيرِ الذى تعيشونَ فيه تحتَ الماءِ ، فقد اشتقْتُ إلى أهلى . كما أن السلطانَ سيُصيبُهُ القَلَقُ إذا تأخَّرْتُ بعدَ اليومِ عن العودةِ إلى عملى » .

وكانَ وداعُ أهلِ البحرِ لعبدِ اللهِ البرّىّ مُؤثِّرًا ، فقد نشأَتْ بينهم وبينه صداقاتٌ قويةٌ جميلةٌ .

وبدأَتْ رحلةُ العودةِ إلى الشاطئِ ، وعبدُ اللهِ البحرىُّ يقودُ صديقَهُ البرّىَّ ، والبرّىُّ لا يكفُّ عن إلقاءِ الأسئلةِ حولَ الجديدِ الذى يراهُ فى الماءِ ، والبحرِىُّ لا يكفُّ عن إلقاءِ مزيدٍ من الإجاباتِ والمعلوماتِ ، التى ظلَّتْ تُثيرُ دهشةَ البرّىّ وحيرتَهُ .

* * *

وفيما هما فى طريقِهما للخروجِ من الماءِ ، وجدا جمعًا كبيرًا من أهلِ البحرِ ، قد تَجمَّعوا فى احتفالٍ عظيمٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ البرّىّ مُتسائلاً :

« بماذا يحتفلونَ ؟ »

أجابَ عبدُ اللهِ البحرِىُّ : « هذا



احتفالٌ يدعونا الواجبُ ألا نتخلَّفَ عن المشاركةِ فيه . لقد تُوفّيَ كبيرٌ من أهلِ البحرِ ، والتقاليدُ هنا تقضى بتوديعِ الميتِ بالفرحِ والسرورِ » .

وفى دهشـــةٍ بالغـــةٍ ســـألَهُ البرّىُّ : «مثلمـــا تســـتقبلون المولـــودَ الجـــديدَ؟! »

قالَ البحرِىُّ : « بل على العكسِ .. نحن نستقبلُ المولودَ الجديدَ بالحزنِ



والبكاءِ ، لكثرةِ ما سيُعانيهِ فى الحياةِ من ألمٍ ومَشَقَّاتٍ ».

تعَجَّبَ عبدُ اللهِ البرِّىُّ ، وقالَ فى استنكارٍ : « تقاليدُنا عكسُ هذا تمامًا ، فنحنُ نستقبلُ المولودَ الجديدَ بالفرحِ والترحيبِ ، لأنَّ العائلةَ زادَتْ فردًا . ونُودِّعُ المُتوفَّى بالحزنِ والبكاءِ ، لأننا فقَدْنا عزيزًا علينا » .

هنا ظهرَ الغضبُ الشديدُ على عبدِ اللهِ البحرِىِّ ، وقالَ : « لستُ أفهمُ



كيف تحزنون وأنتم ذاهبونَ إلى رِحابِ اللهِ عزَّ وجلَّ !! »

* * *

وبعدَ أن انتهَى الاحتفالُ ، أكملَ عبدُ اللهِ البحرِيُّ طريقَهُ مع عبدِ اللهِ البرِّىِّ إلى الشاطئِ .

وعندما وصلا ، قالَ البحرِيُّ للبرِّىِّ :

«الآن أودِّعُكَ يا صديقى إلى غَيْرِ لقاءٍ ، لأن نفسى لا تطمئنُّ إلى صداقةِ مَنْ يخشَوْنَ لقاءَ اللهِ عزَّ وجلَّ » .

ومعَ أن عبدَ اللهِ البرِّىَّ كانَ يعرفُ تمامًا أن لكلِّ شيءٍ نهايةً ، فقد شعرَ بالأسفِ لتلك النهايةِ غَيْرِ المُتوقَّعةِ ، التى انتهَتْ إليها صداقتُهُ مع عبدِ اللهِ البحرِىِّ .

كانَ يقولُ لنفسهِ فى استنكارٍ شديدٍ : « قد نختلفُ ، لكنْ لماذا تنتهى صداقتُنا بسببِ هذا الاختلافِ ؟ »

* * *



لكنه شكرَ اللهَ ، لأن مغامرتَهُ التى مَرَّت كأنَّها حلمٌ مع الجنىِّ المارد ، الذى كانَ يُوشِكُ أن يقتلَهُ بسكينِهِ ذاتَ يَوْمٍ ، قد انتهَتْ ، كالحلمِ أيضًا ، بأن اكتشفَ قُدرةَ ابنتهِ على مواجهةِ المواقف الجديدة بأفكارٍ جديدةٍ ، لا تخطر على عقلِ الكِبارِ ولا على خيالِهم. كما تَعرَّفَ على كثيرٍ من أسرارِ عالمِ البحارِ المُثيرِ العجيبِ . وفى النهايةِ أصبحَ مستشارًا للسلطانِ ، يعاونُهُ فى الحكمِ بالعدلِ بينَ الناسِ .

تمت

أنشطة حول القصة

* نقترحُ عليكَ أنْ تشتركَ في أحدِ أو كلِّ الأنشطَةِ التاليَةِ :

١– اكتُبْ وصفًا لشخصيةِ سعدية الذكيةِ ، الابنةِ الصغرى لعبدِ اللهِ البرِّىِّ . مُبيِّنًا رأيكَ في تصرُّفاتِها وأفكارِها .

٢– إذا وضعْتَ نفسَكَ موضعَ الصيادِ عبدِ اللهِ البرِّىِّ ، فهل كنْتَ ستغامرُ بفتحِ الجرَّةِ للمرةِ الثانيةِ ، أم كنْتَ ستمتنعُ عن ذلك ؟ ولماذا ؟

٣– هل تتخيَّلُ أنه سيكونُ في استطاعةِ الإنسانِ ، في المستقبلِ ، أن يعيشَ تحتَ سطحِ الماءِ مثلَ الأسماكِ ؟ وكيفَ ؟

٤– تخيَّلْ أنك عِشْتَ شهرًا في مدينةٍ تحتَ الماءِ .. اكتبْ قصةً حدثَتْ في مثلِ تلك المدينةِ ، أو ارسمْ لوحةً لبعضِ معالمِها .

٥– القاعُ تحتَ ماءِ البحرِ ، حافلٌ بالنباتاتِ والأسماكِ و المخلوقاتِ والصخورِ المرجانيةِ والجبالِ والبراكينِ وآبارِ البترولِ وغيْرِها . اكتُبْ قائمةً بأسماءِ ما تعرفُهُ من سكانِ ماءِ البحرِ ، أو ما تعرفُهُ من مظاهرِ الطبيعةِ في قاعِ البحرِ ، مع وصفِ بعضِ ما تذكُرُهُ ، ورسمِ البعضِ الآخرِ .

٦– ما رأيُكَ في الخلافِ الذى نشأ بينَ عبدِ اللهِ البرِّىِّ وعبدِ اللهِ البحرِىِّ في نهايةِ القصةِ ؟ اكتبْ نهايةً لهذا الخلافِ تختلفُ عن النهايةِ التي وردَتْ في القصةِ .

٧– في هذه القصة ، يختلط الواقع بما يمكن أن يحدث في الأحلام . هل تستطيع أن تستخلص ما يمكن أن يحدث في الواقع من بين أحداث هذه القصة ، خاصة ما نجده من ردود أفعال نفسية طبيعية لشخصيات القصة ، في مواجهة مختلف المواقف والأحداث ، حتى إذا كانت هذه الأحداث مستمدة من عالم الخيال ؟